

محمد محمد حسين مفكراً إسلامياً وناقداً أدبياً

محمد عبد الحميد محمد خليفة *

عنها . . فمن هو محمد حسين؟ وما هي أهم ملامح فكره؟ وكيف كان درسه النص الأدبي ونقده إياه؟ وما هي مقاييسه؟

١ - أما محمد حسين فقد ولد في صعيد مصر في الرابع من أغسطس عام ١٩١٢م، وقد تربى في مدارسها حتى التحق بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول «القاهرة حالياً» فحصل على الليسانس الممتازة عام ١٩٣٧م من قسم اللغة العربية، ثم الماجستير في الأدب العربي ١٩٤٠م، فالدكتوراه، وتدرج في الوظائف الجامعية حتى شغل كرسي الأستاذية عام ١٩٥٤م، عمل رئيساً لقسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية وغيرها كجامعة بني غازي العربية، وجامعة بيروت، ثم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومن أهم مولفاته كتاب «الهجاء والهجاءون» في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، وكتابه المتميز «الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث في مصر»، وتحقيقه ديوان الأعشى الكبير، وكتاب «حصوننا مهددة من داخلها»، وكتاب «الإسلام والحضارة الغربية»، وغيرها . . . فضلاً عن مجموعة من البحوث التي نشرها في مجلة اللغة العربية بالرياض، وبحوث أخرى نشرت جميعاً بعد وفاته في كتاب عنوانه «مقالات في الأدب واللغة»^(٢).

٢ - والمطلع على حياة محمد حسين عام ١٩١٢ - ١٩٨٢م يجد أنها تنقسم قسمين رئيسيين، يبدأ القسم الثاني منهما بكتاب «الاتجاهات الوطنية» عام ١٩٥٤، أما القسم الأول فظاهر حياته يوحى بتأثره الواضح بأستاذه طه حسين منهجاً في الدراسة وأسلوباً في التفكير النقدي، حتى إنه -

لا شك أننا الآن في حاجة ماسة إلى تناول معظم رواد الفكر والثقافة على اختلاف مشاربهم بالبحث والدرس تعرفاً على منهجهم والإفادة منه، وإبراز دورهم الريادي، ولفت أنظار الباحثين من الشباب إلى هذا الدور وأهميته، ففعل ذلك يرد إليهم بعض حقوقهم التي ربما غُمطت في حياتهم.

وكان محمد محمد حسين أحد هؤلاء الرواد الذين جاهدوا زمناً بالكلمة، فكان له منهج في التفكير، وشخصية ذات حضور على الساحة الفكرية والنقدية في هذا القرن.

ولقد عُرف محمد محمد حسين مفكراً إسلامياً أكثر منه ناقداً أدبياً، وحظيت الأولى بوقوف كثير من الأساتذة والنقاد عندها^(١)، بينما ظل الجانب الأدبي النقدي عنده محتاجاً إلى مزيد من الدراسة المتأنية، والبحث المستقصي، لذلك كله عُنت بهذا الجانب، وخصصته في بحثي للماجستير بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، والتي أُنْهَـز هذه الفرصة كي ألمح إلى دور قسم اللغة العربية بها في إحياء ذكرى رواد الدراسات الأدبية واللغوية، وبيان عطائهم لشبيبة الباحثين، وهو دورٌ مشكور ينهض به أساتذة أفاضل، وعلماء أجلاء كالأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة وعثمان سليمان موافي، والدكتور/ عبده السيد الراجحي وغيرهم من الرواد الذين تستنير بعطائهم العلمي الأصيل والفكري الملتزم قاعدة عريضة من الشباب الباحثين المشتعلين حماسة للمعرفة في وطننا العربي والإسلامي الممتد.

ونبدأ هذا المقال بثلاثة أسئلة نحاول بإيجاز الإجابة

* باحث يحمل شهادة الماجستير في النقد الأدبي «ممتاز» جامعة الإسكندرية، له بعض البحوث الصغيرة المعدة للنشر، وكذلك قصص قصيرة، عضو بهيئة الفنون والآداب والعلوم بالإسكندرية.

في ظني - قد انتهج الشك «المنهجي» في أكثر من موضع في دراساته الأدبية، حيث حقق بعضها في الروايات والنصوص، وتصور الطبقات الأولى لآثاره في تلك الحقبة التزامه المنهج العلمي الذي نادى به طه حسين في الدراسة الأدبية، وما يقتضيه هذا المنهج من حرية في البحث، وموضوعية في التفكير، كما تصور بعض آثاره في القسم الثاني من حياته ندمه على ما فرط، ونيته في إصلاح ما أفسد^(٤) الأمر الذي أشار إليه أيضاً عند تقديمه للطبعة الثانية في بعض آثاره السالفة الذكر^(٥).

وفضلاً عن الحرية والتعقيل سمتين واضحتين في منهج محمد حسين يلاحظ مستقري حياة الرجل أنه قد مر في تفكيره بمراحل تأمل فلسفي ما، شغل فيها بمسألة تحضير الأرواح. فقد استهوته، وانغمس في البحث فيها زمناً، فزج بنفسه في هذا الميدان، فحضر جلسات مدعي بعث الأرواح وعندما تسرب إلى نفسه الشك فيما شهد من خدع، رأيناه قد نأى بنفسه بعيداً، واتخذ موقفاً أصلاً فيما بعد وأوضحه في بحثه «الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها»، وقد ظلت أربعمائة هذا القرن تشهد إرهابات تكوين فكر محمد حسين الجديد، وبمعنى أدق استقراره، ووضوح ملامحه الإسلامية والتزامه، ويدل على ذلك عندي - تقرير رفعه عام ١٩٤٥^(٦) إلى اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية عن تدريس الأدب العربي وإمكان استغلاله في تقوية الرابطة بين أم الجامعة العربية، ولا شك أن هناك قضايا بعينها شغلت محمد حسين في ذلك العقد، منها إعادة اطلاعه على الأدب الحديث بخلفيته التاريخية والاجتماعية، مع ما زامن ذلك من إعادته بناء ثقافته الإسلامية على أسس الموروث السلفي، وفي ضوء ما أفرزه العصر الحديث من فكر إسلامي مستنير، مؤيد بالعلوم التجريبية، كما ظهر ذلك في آثار رجل كالشيخ طنطاوي جوهرى، كما شغل محمد حسين في ذلك العقد قضية الوحدة العربية والتماس سبلها وإلحاحه في ضرورة التمسك بشخصيتنا العربية في ملامحها الإسلامية، ولعل ما نكب به العرب والمسلمون حينذاك من شتى أنواع الغزو العسكري والفكري والاجتماعي، وما نكبت به فلسطين، وما ظهر من أطماع الغرب المستعبد في الشرق المسلم، كل ذلك - أرجح - أنه عمل على إحداث هزة قوية ارتجت لها أفكار الرجل،

ونارت في نفسه وغلت، حتى فار بها قوله، وأسفر عنها كتابه «الاتجاهات الوطنية»، ولم يكن من محض المصادفة أن يواكب تأليفه هذا الكتاب شروع محمد حسين في حج بيت الله الحرام كما يحدثنا هو بذلك^(٧).

وهكذا حدد محمد حسين لنفسه الطريق الذي ينبغي أن يسير فيه، ومنذ ذلك التاريخ ظهر التزامه الفكري، وإحساسه بمسئوليته أدبياً وفكرياً، وأخذت مفاهيمه لما حوله من أفكار وقضايا تتضح وتحدد وتبلور، وقد لونها فكره، فإذا أردنا مثلاً التعرف على مفهوم محمد حسين للأدب اشتمنا رائحة فكره تسري خلال حديثه.

وهكذا أيضاً اختار لنفسه طريق العمل الجاد، وإذا كان أدبياً لا يملك إلا الكلمة فقد وجه جهده وجهة الأدب والفكر، فصال بالكلمة، وجال بالحجة، وأخذ يؤرخ للأدب والفكر والسياسة، مستنداً إلى التاريخ والمنطق، لا يهاب من خصومه أحداً، حتى ولو كان أستاذه طه حسين، يساعده في ذلك عناد في الحق، وإصرار عليه، وثقة بالنفس، وقد كان حريصاً على أن يظل فعالاً في أحداث حاضره، مشاركاً في كل ما يعن من أمر يهم حاضر الأمة ومستقبلها الثقافي والتاريخي، فخلف وراءه تراثاً كالمرآة الصافية تنعكس عليها أحداث عصره، إلى جانب استشرافه مستقبل أمته.

توفي محمد حسين ولم يستكمل ما كان يود أن ينهض به، ولعل أبرزه هو الرغبة في تعميم الكتابة عن الاتجاهات الوطنية لدى الدول التي تتخذ العربية لغة، ومن فضل القول أن نذكر أن آخر ما خلف محمد حسين حيث مات ولم يكمله ما وجد لديه من مسودات^(٨) الجزء الثالث «الاتجاهات الوطنية» الذي كان ينوي فيه تغطية فترة ما بعد ثورة عام ١٩٥٢ بالتاريخ والدرس.

٣ - أما فكر محمد حسين فهو أكثر جوانب الرجل التي حظيت بدراسة كثير من الباحثين، وتأمل كثير من المفكرين، الذين رأوا في فكره أصالة وجدة تستحق صفة الريادة، فكثير ممن يعرفون محمد حسين لا يعرفون منه إلا رجلاً ذا فكر مستنير، قبل أن يعرفوا فيه أدبياً باحثاً^(٩).

ومعلوم أن هناك تاريخاً بعينه في حياة الرجل كان بمثابة نقطة التحول في حياته كلها، حيث استقر فكره،

سالكاً كل السبل - أن يستعيد أمتنا بطرق شتى بعيداً عن العمليات العسكرية المباشرة، باصطناعه سياسة «التغريب» Westernisation، وتعميقه الفوارق بين الدول الإسلامية بعضها ببعض، مقابل تقريبه بين هذه الدول الإسلامية والغرب، وكل هذه الحرب تجري على الجبهة الثقافية والعلمية، فهي إذ تلبس أثواباً شتى، إلا أنها تهدف إلى هدف واحد، هو استعباد الغرب للأمة كلها، وجعلها تابعة له دائماً، وتكون أداة في يده، بعدما يطمس الغرب شخصيتها الإسلامية، التي هي مناط احترام العرب وتقديسهم، والتي هي أيضاً مصدر قلق الغرب ونفوره. من هنا أدرك محمد حسين أنه يستطيع خوض غمار هذه الحرب، لأنها على جبهته، فتسلح لها بفكر استقاءه من التراث العربي الأصيل، إيماناً منه أن هذا التراث يعد الجذور التي تمسك ببيان الحاضر الفكري، فأول ما نلاحظه إذاً هو أن «السلف» الذين أرسوا هذه الجذور، هم بمثابة روافد فكره الأولى، لأن «... أسلافنا أحكم منا، وأرجح عقلاً، وأسلم فطرة، وأعرف بما هم في حاجة إليه...»^(١٢)، كما دعم هذا الفكر عنده تأمل معن لسنن الله في خلقه، جعله لا يأس مما رآه من حرب بين القديم المحافظ والجديد المستجلب، بل يطمئن إليها راجعاً الخير والنفع من ورائها، فهما كالحق والباطل، اللذين ضرب الله بهما المثل، إذ أن الباطل يذهب جفاء ويبقى في الأرض ما ينفع الناس من حق أبلج.

وقد كان يدرك أهمية شعار «الوحدة العربية» خاصة أنه عاين حماسة الأمة العربية في فترة ما، كان لهذا الشعار وهج عظيم، أجج في نفوس الشعوب العربية نار الثورة على الاحتلال، في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن، وعلى أية حال فإنني أظن أن إحساسه بعروبه كان عظيماً، وأعني «بعروبه» تلك العروبة التي لاتجد شخصيتها إلا في الإسلام، ولا مقوماتها إلا في الدين، ويؤكد ذلك عندي ما عقده محمد حسين من فصل خاص^(١٣) بسط فيه الحديث عن أهم الدعوات التي يروجها الغرب، لتفتيت ما أسميه أنا «وحدة العرب»، وما يسميه محمد حسين في صدر هذا الكتاب بـ «تآلف العرب ومجتمع المسلمين»، وإذا كان قد رأى من هذه الدعوات الثلاث (الدعوة إلى هدم الدين جملة، والدعوة إلى هدم اللغة بقواعدها وحروفها، والدعوة إلى هدم الأخلاق) ما يُهدف به

وتبلور، وتحددت ملامحه وخصائصه على أسس واضحة، كلها إسلامي الوجهة، عربي السمة والملمح. كان هذا في بداية الخمسينات من هذا القرن، فمئذ أن فرغ من إعادة تحقيقه ديوان الأعشى «ميمون بن قيس» عام ١٩٥٠م رأيناه عاكفاً على آثار أدبية حديثة، خاصة شعر شوقي، فقد كان همه في أول الأمر أن يكتب عن وطنية شوقي، وكان هذا الموضوع بمثابة الضوء الأحمر الذي جعل الرجل يقف طويلاً، فيعيد النظر في شعر الشاعر، بل في أدب عصره أجمع، من شعر معاصري شوقي ونثرهم.

سواء أكان هذا النشر مقالات صحفية أم حوليات سياسية، للدعاة ما يسمى بالوطنية والقومية من العرب مسلميهم ومسيحييهم، والأترك، وكذلك ساسة الغرب ومفكروهم. من هنا أدرك محمد حسين مفارقة كبرى في هذه الحقبة عند أدبائنا منذ قيام الثورة العربية سنة ١٨٨٢ وحتى سنة ١٩٤٥ وقت إنشاء جامعة الدول العربية، وهذه المفارقة لا تقف عند الأدباء فقط، بل تتعداهم إلى صوت الأمة كلها حين ذاك، فهي تنشأ من خلال ما لاحظته محمد حسين من ازدواجية الفهم العام للوطنية، بين عصر شوقي وعصرنا الحاضر، بما يعكسه لنا أدب ذلك العصر من صحف وكتابات، فخلص إلى نتيجة آمن بها بعد استقراء فطن لهذه الكتابات، مؤداها أن «... وطنية هذه الفترة لم تكن هي وطنيتنا، وأن قيمها لم تكن هي قيمنا، وأن تفكيرها لم يكن هو تفكيرنا، فالخطأ في الحكم يرجع في معظمه إلى تغير مفهوم الوطنية على مر الأيام»^(١٤). من هنا كان كتابه «الاتجاهات الوطنية» بداية جديدة في حياته الفكرية والعلمية، فهو فضلاً عن أنه يعد أول وثيقة واضحة لفكر محمد حسين، فهو أيضاً دليل على إيجابية الرجل ومنهجه في تصحيح الأخطاء، بما يطرحه من فكر جديد، ويؤسسه من مقاييس جديدة، تقاس بها القيم والرجال، يقول :

«ومن هنا يبدو أن البحث في لبه يستهدف تصحيح القيم الوطنية والقيم النقدية في دراسة الشعراء المعاصرين»^(١٥)، وقد تكشفت لمحمد حسين مجموعة من الملاحظات والقضايا الفكرية، التي استبطنها بعد إمعان للتاريخ والسياسة، كلها تدور حول علاقة الشرق الإسلامي - بما فيه الدول العربية - بالغرب المسيحي، الذي يحاول -

من خلال الفكر الذي يحملانه، فهو عندما تناول الدعوات الهدامة، كالماسونية والروحية والتوفيق بين الأديان، أخذها دعوة دعوة، أي كل دعوة على حدة، فأورد من مركزاتها ومبادئها، ومن نصوص الداعين إليها، ما وضح به زيفها وزيفها، وكفرها وإلحادها، وهو بذلك قد غاص إلى داخلها، ليجعل هدمها يتم بيدها وعن طريقها^(١٩).

وهو يؤمن بأن الهجوم على هؤلاء الهدامين هو أفضل وسائل الدفاع، وذلك باصطناعنا نفس منهجهم، فإذا كانوا يكدون لنا باستقصائهم آثارنا، وعكوفهم عليها لدارستها دراسة علمية، فمحمد حسين يسأل سؤالاً يقتصر فيه كيفية التصدي لهم حينما يقول عن الغرب: «فلماذا لا نبني سياستنا في مقاومة مكايده، وإحباط خططه، والسبق إلى مبادئه، على أساس علمي مدروس، يقوم على استقصاء ما كتبه ساسته وعلماءه عن الشرق وعن العالم الإسلامي؟ ولماذا لا نتعاون على نقل هذه الدراسات...» (٢٠).

شخصية إسلامية :

وأخيراً فإن محمد حسين أشد ما يكون تمسكاً بالشخصية الإسلامية، التي تقوم عليها القومية العربية، فهو إذا ناقش علاقتنا بالغرب نراه يقول: «ليس الذي ينقصنا هو أن نسلخ من جلودنا لندخل في جلودهم، ونخلع من ديننا وتقاليدنا وأذواقنا ولغتنا وآدابنا وفنوننا لندخل في دينهم وتقاليدهم وأذواقهم ولغاتهم وآدابهم وفنونهم، فذلك لا يكون أبداً...» (٢١).

وهكذا ينتهي محمد حسين بعد تفنيده ومناقشته الآراء، ومعركته الفكرية العقيدية إلى سؤال يواجه فيه خصومه ويلجهم به، حينما يقول في وضوح الواثق من سلامة فكره ومنهجه (فلنضع السؤال الصريح القاطع إذن دون لف أو دوران، ففيه فصل الخطاب: هل نريد أن نظل مسلمين تحكمتنا أصول الإسلام...؟) (٢٢)، وهكذا تبدو لنا أصالة فكر محمد حسين، تلك الأصالة التي يمكننا أن نلخصها في أنه رجل قد أتى بفكر سلفه وتراثهم فأثبت أصالة هذا الفكر، ورسوخ هذا التراث، وثباتهما أمام رياح التغريب العاصفة، ودعوات الهدامين الطائشة، هذا إلى جانب احتكامه إلى المنطق السليم،

إلى هدم الأخلاق والدين، فإنه - بوصفه أديباً ومتخصصاً - أحس أخطر هذه الدعوات الثلاث وهو ما يهدف به إلى هدم «اللغة»^(١٤)، فجاهد في بيان الحدود التي يجب أن تقف عندها عند أخذنا من الغرب، وكان له في كل ذلك مواقف واضحة كحركة الترجمة والنقل عن الغرب^(١٥)، خلاصتها أنه يجب أن ننقل حضارة الغرب المادية دون الفكرية والثقافية^(١٦)، لأن تخلفنا فيما تحضر فيه الغرب من علوم مادية وتجريبية هو سبب ضعفنا وانقيادنا له، ومن ثم فهو يهاجم كثيراً من الدعوات الهدامة، كالعالمية والاشتراكية والصهيونية، وغيرها من الدعوات التي تلبس ثوب العلم، كمثل تلك التي تدعو إلى دراسة اللهجات العامية، وتطرح نوعاً جديداً من الدراسات اللغوية، على أساس منهجي صرف، وغير ذلك من دعوات تتمسح في العلم، كدعوة تخضير الأرواح، فكل هذه دعوات هدامة، تستهدف هدم الدين، لأن تصور أصحابها للمعرفة غير صحيح من الوجهة الإسلامية.

فمن قال إن العلم يقصد لذاته، وللذة المعرفة وحدها، يرد عليه محمد حسين قائلاً: «... وهذا تصور للمعرفة غير إسلامي، فصناعة الخمر معرفة...»^(١٧)، ومحمد حسين بتصوره الإسلامي ذلك الذي يدعو إلى وحدة المفهوم الإسلامي للأشياء والحقائق، يضع إصبعه على بيت الداء، الذي يفصل بين المفهوم الإسلامي «الواحد» للأشياء، والمفهوم الغربي «المزدوج» لها، وهو «الثنائية» التي عمقتها عندهم التجربة «الوضعية والمسيحية»، وهذه الثنائية هي التي كانت سبباً في شل أفكار الغرب وعقائدهم، شللاً جعلهم عاجزين عن تحريك الإنسان وتربيته، من أجل أن يكون متوحداً متوازناً، وهي التي ملأت بالتالي حياته المعاصرة بالتفاهة والخواء، ثم إن هذه الثنائية إلى جانب إيمانهم باللاهوت النظري، والفصل القسري بين الفكر والحياة، بين التصور والواقع، بين السماء والأرض، بين العقل والروح، تقف سداً في وجه محاولاتهم الباحثة عن الأسلوب الشامل المتوازن الحيوي الصحيح^(١٨)، من هنا كانت أهمية هذا التصور الإسلامي عند محمد حسين، في تقويم تلك الدعوات الهدامة، كالعلمانية وغيرها - وكان سبيله إلى تقويضها - أقصد تقويمها - سبيلاً مقنعاً، يأخذ «المذهب الهدام، أو الرجل المفسد، فيدخل إلى أعماقهما، محاولاً أن ينفذ إلى تقويضها

اختار طريق الكلمة .. ووجه جهده لخدمة أدينا الإسلامي ..

بالرسوم البيانية، ترسم فيها الاتجاهات المتوازية والمنحنية، ليجئ بعد ذلك محمد حسين الناقد، كي يقيس تلك الاتجاهات، ويحدد درجة تأثيرها، قوة وضعفها في المجتمع العربي والإسلامي حين ذاك، وأظهر الشواهد على ذلك هو أنه قد بدأ هذه الدراسة بالتأريخ للاتجاهات الوطنية في الأدب الحديث في مصر، وهي تكاد تطابق مثيلاتها في باقي الدول العربية منذ قيام الثورة العربية ١٨٨٢، وحتى قيام الجامعة العربية في مارس ١٩٤٥ - وهنا يبدو حسه التاريخي سافراً في تقسيم الفترة التي يؤرخ لها إلى شطرين متميزين، تكون الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٩ حداً فيصلاً بينهما، يقول: «وقد تبين لي من بعد أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٩) كانت حداً فاصلاً بين عصرين متباينين في فهم مدلول (الوطنية)، ولذلك رأيت أن أقسم بحشي عن (الاتجاهات الوطنية في الشعر المعاصر) إلى قسمين ينتهي أولهما إلى قيام الحرب العالمية الأولى، وهو موضوع بحث هذا الكتاب الذي أقدمه بين يدي القراء»^(٢٦)، كما بدا هذا الحس التاريخي والتقدي واضحاً عند تعرض محمد حسين لجزئية تناولها بالبحث والدراسة بقصد تقويمها، كمثال ما لاحظته - معتمداً على حسه وذوقه معاً - في حياة رجل كالشيخ محمد عبده، فقد أدرك محمد حسين أن منفي محمد عبده سنة ١٨٨٣-١٨٨٦ كان نقطة تحول في حياة الرجل^(٢٧)، فقبل منفاه كان اتجاهه إسلامياً واضحاً يدافع فيه عن الإسلام، ويهاجم المستشرقين الذين حاولوا النيل من مبادئه، أما بعد عودته من المنفى فقد بدأ اتجاهه يتغير، فهو يداهن الإنجليز في شخص كرومر، ويعمل على تقريب المسلمين إلى الغربيين.

ومن الأدوات والوسائل التي أتاها للرجل قدرة على النقد الأدبي الحديث ما اتسم به من «شمولية» في النظرة، تدعمها بصيرة، ودقة منطقية في رصد الظواهر الأدبية القديمة، والاتجاهات الفكرية الحديثة.

والعقل المستنير، في رده عليهم.

٤ - أما دراسة محمد حسين للنص الأدبي، فقد تسلح لها الرجل بوسائل أعانتها في دراسة النص، تأريخاً وتفسيراً وتقويماً، وهذه الوسائل تتمثل في ذوق مدرب، صقلته ثقافة واسعة، وحس مرهف بالتاريخ، وهذا من أهم جوانب حسه التي يجب الإلماح إليها، فقد كان يتمتع - وكما يبين علماء النفس - بما يسمى «إدراك النسبة الزمنية» التي تعتمد على الإحساس بالوقت جيداً، ومن ثم إدراكه طولاً وقصراً^(٢٨) ليس على مستوى الساعات فحسب بل أقول على مستوى السنين والأجيال، وليس أدل على ذلك من أن نعرف محمد حسين مؤرخاً للأدب، فالإحساس بالوقت، أو لنقل موهبة الشعور بالزمن وطوله، وملاحظة ما يعترض امتداده من أحداث، تشكل ملامحه. وبصيغة أخرى: إدراك أحداث ما في زمن ما، وإدراك علاقتها ببعض يساعد بدوره على إدراك ولادة اتجاه بعينه، أو تيار خاص، ومراقبة امتداده، وتعقب أثره، حتى يصل إلى متناه، وكل هذه هي عمليات عقلية، تعقب عملية الإدراك الحسي، لخصها العلماء في عمليتي التصور والتخيل^(٢٩).

مواقف تاريخية :

والخلاصة أن الحس التاريخي كما يقولون: «هو حس الفروق»^(٣٥) كان محمد حسين إذاً ذا حس تاريخي مرهف، دفعه هذا الحس في كل دراساته إلى التأريخ للأدب قديماً كان أم حديثاً، وغثل هنا لبعض صور هذا الحس في دراساته الأدبية والفكرية الحديثة، في رصد الاتجاهات العامة، البناء منها والهدامة في الأدب الحديث، وفكر بعض هؤلاء الأدباء، حيث تجلّى حس محمد حسين التاريخي أقوى ما يكون، ولم يكن ذلك بغريب عليه، إذ أكسبه طول التجربة والممارسة في تاريخ الأدب خبرة واسعة، شحذت حسه، ولم يكن لمحمد حسين بد من هذا الحس التاريخي المصقول، إذ كانت دراساته في القسم الأخير من حياته، قوامها التاريخ، لرصد شتى الاتجاهات، وتعقب مسيرتها، ومتابعة ما تفرزه تلك الاتجاهات عن غيرها من اتجاهات أخرى، حتى جاءت دراسة مثل «الاتجاهات الوطنية» أو «الإسلام والحضارة الغربية» أشبه

كان يرى أن الهجوم على المتجاهلين على أدبنا وسيلة للدفاع عنه ..

وقد كان هذا دأب محمد حسين في شتى بحوثه العلمية، يخاطب العقل بالحجة، والوجدان بأسلوب حار، فمناطيقته في الكتابة أعطت لأرائه صفة العلمية، فالأفكار عنده تبدأ من الخاص الجزئي، حتى تنتهي إلى العام الكلي، الذي يشكل ظاهرة تستحق أن يقف عندها الباحث والمؤرخ، ونضرب لذلك مثلاً ما كتبه عن القومية العربية^(٢٨) ظاهرة وواقعا، فقد استقصى معاني القومية في التاريخ العربي فالإسلامي، ولم يترك معنى إلى غيره إلا بعد إشباعه بحثاً، ثم تقويمه بمقياسين: خلقي وفكري معاً، فهو يستدل على أصالة المعنى أو زيفه استدلالاً مباشراً بمقدمة واحدة، أو استدلالاً غير مباشر بعد مقدمتين - أو أكثر - كما يقول علماء البحث^(٢٩).

وإذا رجعنا إلى شمولية نظرة الرجل رأينا يطالب بها صراحة، بل نراه يلزم المؤرخين إياها عند الدراسة التاريخية، وهو يضرب بذلك مثلاً واضحاً، فقضية تطوير العالم الإسلامي التي تدعمها وتشجعها يد التغريب لا يظهر خطرها لدى من ينظر إليها نظرة ضيقة محدودة بحدود تخصصه فقط، فالواقع «أن إدراك حقيقة الشيء يستلزم النظرة الشاملة إليه، التي تحيط به من كل نواحيه، والذي ينظر إلى التطوير هذه النظرة الشاملة يستطيع أن يدرك خطورته ومدى آثاره»^(٣٠). فهذه الشمولية في النظرة إذاً تعتبر من عدة البحث العلمي، وأدواته التي أفاد منها محمد حسين أياً إفادة في آثاره القديمة والحديثة على السواء.

ومثال تلك النظرة الشمولية التي بدأت معه في دراساته التاريخية للأدب أنه حينما تصدى لتاريخ فن الهجاء في الجاهلية والإسلام لم ينظر إلى هذا الفن نظرة ضيقة محدودة، كما كان القدماء من نقاد العرب ينظرون إليه، بل رأينا ينظر إليه نظرة أكثر شمولية، غير مائعة للجديد من التصورات المنوطة بمؤرخ الأدب الحديث، فإذا كان القدماء قد نظروا لفن الهجاء في حدود النصوص الشعرية فحسب، وإذا

كانوا قد نظروا إليه أيضاً بوصفه فناً خاصاً بالأفراد، فإن محمد حسين يخالف القدماء من هذين الوجهين: «... الوجه الأول أننا نجعله شاملاً للشعر والنثر، والمشهور أنه لا يكون إلا شعراً، والوجه الثاني أننا نجعل موضوعه شاملاً للفرد والجماعة والأخلاق والمذاهب، والمشهور عندهم أنه مقصور على الأفراد»^(٣١).

أما في دراساته الحديثة، فإننا نرى تلك الشمولية في النظرة قد أتاحت له دراسة الاتجاهات المختلفة وأبعادها، فكانت كالمرايا المتجاورة، تبرز القضية من شتى جوانبها وصورها وأبعادها المختلفة، فمن صور رصده لاتجاهين متعاصرين تزامناً: ما لاحظته من وجود اتجاه إسلامي صرف قوي غلاب يدعو إلى جامعة إسلامية، تلم شتات المسلمين، وتوحد صفوفهم، للدين الإسلامي اعتباره في تكوينها، فإلى جانب هذا الاتجاه الديني اتجاه آخر عاصره - قبل الحرب العالمية الأولى - يقوم على أساس من الجنس لا الدين، فهو اتجاه يقوم على دعوة «... تنادي بالقومية المصرية، وثبت الشعور بالوطنية الإقليمية في الأمة»^(٣٢)، كذلك يرصد محمد حسين تيارين متناقضين، ظهرا معاً في الحقبة ذاتها وهما: تيارا حركة الإصلاح التي نادى بهما المصلحون من المحافظين والمجددين على السواء، لكن محمد حسين يجد أن هذين التيارين المتعارضين اللذين شقا طريقهما في الحياة المصرية قد ظهرت آثارهما في أربعة قطاعات هي: السياسة والفن والتعليم والحياة الاجتماعية، يقول: «ظهرت آثار هذين التيارين في السياسة، فكان أنصار الجامعة القومية يمثلون الفريق الأول، وكان أنصار الجامعة الإسلامية يمثلون الفريق الثاني، وظهرت في الأدب وفي الفن، فكان هناك فريق يتخذ مثله الفنية من الأوروبيين، وكان هناك فريق آخر يستمد قيمه من قديم العرب ومن تقاليد الشرق، وظهرت في التعليم، فكانت هناك مدارس عصرية تأخذ بأساليب الدراسة الأوروبية، ومدارس أوروبية للجاليات الأجنبية، أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين، وكان إلى جانبها معاهد دينية تقتصر على العلوم الشرعية والإسلامية وما يتصل بها، وظهرت في المجتمعات وفي سائر شئون الحياة...»^(٣٣)، إلا أن هذين التيارين المتعارضين قد أفرزا تياراً وسطاً يحاول التوفيق بينهما.

كشف سموم الكتب الخيثة . لائق شرها .

ومما يدل على فطنته وذكاؤه وبُعد نظره إدراكه ما خفي من أساليب الهدامين في هدم الدين واللغة والأخلاق، وغيرها من القضايا، فمنها تعرضه لقضية تعدد من أخطر القضايا التي شغلت - ولا تزال - كثيراً من الباحثين والمؤرخين في الفكر والأدب على السواء، وهي قضية المعركة بين «القديم والجديد»، وقد أزال بفطنة البصير ما يحيط معنى «القديم» من معان وظلال، تنفر عنه الشباب الذين يستهويهم ما يجدون من بريق حول معاني «التجديد»^(٣٨)، فأرخ لهذه المعركة، ووصف صورها في شتى النواحي الثقافية والاجتماعية والفكرية.

أساليب متعددة :

وفي مناقشة محمد حسين لهذه القضية ظهر تمرسه بشتى الأساليب التي يسلكها دعاة التجديد ضد المحافظين، الذين يعرفون قيمة القديم التراثية، فمن ذلك دخول معركة القديم والجديد الحياة الاجتماعية، فقضية المرأة كانت إحدى القضايا الاجتماعية الكبرى التي كان لها حظ كبير من هذه المعركة، فقد دعا المجددون بأساليب شتى إلى سفورها وحريتها، فظهرت النساء متبرجات ثائرات على التقاليد، وقد كانت الصحافة تغذي كثيراً من أفكارهن المتحررة، بصورة مباشرة لا مواراة فيها، ولكن محمد حسين يدرك هذه الأساليب الماكرة، فمن ذلك أن بعض هذه الصحف كانت تسلك أسلوباً خبيثاً. «... لا تظهر فيه بمظهر السيطرة والتوجيه، ولكنها تظهر بمظهر المستفتي المتسائل، لتبرز مسائل معينة، تريد أن تجعلها موضوع مناقشة وأخذ ورد»^(٣٩)، ويضرب بذلك مثيلين: أحدهما ما كانت تحمله مجلة «الهلال» من بعض الاستفتاءات في هذا الموضوع، والثاني مقال للدكتور «أمير بقطر» بعنوان «التعليم المختلط وأثره في توجيه العواطف بين الجنسين»، ففي مثل هذه المقالات توجد أفكار غريبة «... قد ينكر القراء بعض ما فيها أول الأمر، وربما انصرفوا عنها فلم يقرؤوها، ثم تستدرجهم جدة ما يدور

بقي أن نقول في النهاية إن محمد حسين في نظره الشمولية هذه التي ظهرت من خلال عرضه الاتجاهات العامة، إنما يصدر في هذه النظرة عن أساس إسلامي، يدعو إلى ضرورة تصور الوجود والكون بصورة شاملة، فميزة التصور الإسلامي في شموليته لشتى عناصر الوجود: «... إنه التصور الذي لا يأخذ جانباً من الوجود ويدع جانباً آخر...» وإنما يأخذ الوجود كله بماديته وروحانياته ومعنوياته، وكل كائناته»^(٣٤)، وقد أحسن محمد حسين توظيف هذا التصور الإسلامي، أو هو قد أفاد من كلية مفهوم الإسلام للوجود، أفاد به في دراساته التي أرخ بها للأدب خاصة في القسم الأخير من حياته، حيث تبلور فكر محمد حسين، وظهر ذلك في آثاره الحديثة، فهو في هذه الدراسات الحديثة التي يؤرخ فيها للاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ويفضل عالم التاريخ الأكاديمي، ذلك لأنه بما يقدمه لنا من تاريخ حي - برغم بعد زمنه عنا الآن - قد قضى على التسطح الجامد في كتابة التاريخ، كما أنه بهذا الصنيع يقضي «على فكرة الامتداد العمودي للأحداث، لكي تعطى للإنسان فرصة تدبرها أفقياً، بكل عناصرها ومكوناتها، لكي تتيح للمؤرخ فرصة معايشة التاريخ، ومن ثم أبعاد الرؤية إلى كل جوانب الكينونة الإنسانية، فعندما يعيش المؤرخ أحداث التاريخ وينفعل بها، فإن بإمكانه أن يقول لنا أشياء لا يستطيع أن يقولها لنا الأكاديميون، الذين تقتصر فاعليتهم على التنسيق والتفكير المجرد»^(٣٥)، لذلك حظي كتابه «الاتجاهات الوطنية» بثناء كل من قرأه، لأنه كان صورة جلية لسمات الرجل العقلية في الكتابة، فوصف بالدقة والعمق والشمول، إلى جانب سداد الحجة^(٣٦)، وسلامة الاستدلال، حتى إن أحد الباحثين اليوغسلاف قال عنه: «إنه يتسم بالشمول والعمق والدقة والنقد والتمحيص والصراحة والتوجيه...» لأن صاحبه وقف فيه بالمرصاد الدقيق أمام جميع الظواهر الهدامة التي انهالت على الأدب العربي الحديث»^(٣٧).

أما هو فقد قصد ألا تكون دراساته التي يعمد فيها إلى التاريخ الأدبي مجرد تنسيق وترتيب في الأفكار فحسب بل استعان بذوقه، إلى جانب النظرة الشاملة ذات الأبعاد في كشف نوع من الارتباطات بين الظواهر والأشياء المتشابهة أو المتقابلة، ومن ثم موازنته بينها.

تفهم ضرورة التجديد في الأدب .. ولكن بضوابط محكمة ..

حولها من نقاش لمتابعتها، ثم يألّفونها على توالي الأيام، وقد تظمن نفوسهم إلى بعض ما كانوا ينكرونه منها في أول الأمر»^(٤٠).

ومما يدل على يقظة الرجل وثاقب نظره ما لاحظته في أسلوب الشيخ على عبدالرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، فقد تعجب محمد حسين من إكثاره ذكر «صلى الله عليه وسلم»، وهو في معرض هدم الحكومة الإسلامية، يحاول بكل الطرق فصل صفة الحكم عن النبوة عند محمد «صلى الله عليه وسلم» يقول: «إكثار المؤلف من ذكر (صلى الله عليه وسلم) عجيب يلفت النظر، إذا قورن بجراته عليه وعلى صحابته، وعلى رأسهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه فكأنما هو يكثر من الصلاة والسلام عليه تقية ودفعاً للشبهات عن نفسه»^(٤١).

فكر إسلامي :

وقد يلبس الذكاء عند محمد حسين ثوب المفكر الإسلامي، أو العالم الاجتماعي، واسع الخبرة بالأساليب التي يصطنعها الغرب المستعبد، في تغريب الشعوب العربية، وتقوية روح الشعوبية بينها، وتعميق الفوارق بين الشرق الإسلامي والعربي منه بوجه خاص، وصور هذه الأساليب كثيرة متعددة... مثل الاهتمام بتدريس التاريخ القديم على الإسلام لتلاميذ المدارس، وأخذهم بتقليده، والاستعانة على ذلك بالأنشيد، ومثل خلق أعياد محلية غير الأعياد الدينية، التي تلتقي قلوب المسلمين ومشاعرهم على الاحتفال بها، ومثل العناية بتميز كل هذه البلاد بزي خاص - ولا سيما غطاء الرأس - وما يترتب عليه تمييز كل منها بطابع خاص، بعد أن كانت تشترك في كثير من مظاهرها»^(٤٢).

كما يبدو ذكاً أيضاً حينما يتعرض بالنقد لمجموعة الكتب المترجمة التي تصدرها اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية إلى جانب مؤسسات أجنبية أخرى كمؤسسة

«فرانكلين» الأمريكية للنشر، فهذه المؤسسات قد قدمت لمشروع الترجمة إلى العربية مجموعة من أشد الكتب الثقافية خطراً على الدين، لما تدعو إليه بطريق خبيثة من التشكك في الغيب والدين جملة، وقد كان محمد حسين يعمل دائماً على كشف سموم هذه الكتب واستخراج خبيثاتها «يستخرجها كما يستخرج الخبير الحية المؤذية من جحرها ليتقي الآمنون نفثة سمها حين تلدغ في الخفاء»^(٤٣). وكان كتاب «مختارات من (إمرسون)» وكتاب قصة الحضارة «لهويل ديورانت» أشد هذه الكتب خطراً في هدم الدين والغيب، ومقارنة الرسول (عليه الصلاة والسلام) بغيره من العباقرة والفلاسفة تلميحاتاً وتصريحاً، بل تعدى محمد حسين مشروع الترجمة باللجنة الثقافية في الجامعة العربية، من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٦، إلى مجموعة البحوث الإسلامية التي قدمت في مؤتمر الشرق الأدنى بجامعة برينستون عام ١٩٥٣، وهي بحوث لا تقل عن الكتب السابقة في خبث مقاصدها وسمومها، كتبها مجموعة من المستشرقين أو القسوس المتأسلمين، فبين خطر مثل هذه المترجمات، وكشف ما تهدف إليه من تغريب العالم الإسلامي.

٥ - بقي أن نشير إلى العلاقة الوطيدة بين المتزعم الأدبي للرجل ومنزعه الفكري: فالوحدة العربية والإسلامية فكرة سيطرت على عقل محمد حسين وقلبه، فجاهد من أجلها، واستمر طوال حياته منادياً بها، وخاصة في القسم الثاني من حياته، ولهذه الوحدة صور شتى، والشخصية العربية مظهر من مظاهر هذه الوحدة بين المسلمين، ويعد الأدب العربي القديم، شعره ونثره «هو التراث المشترك الذي تلتقي عنده الشعوب العربية وتفاخر به، فالعناية به وصرف الشباب إليه من أنجح الوسائل لإحياء روح العربية فيهم وإزالة ما أحدث الزمن والظروف من فوارق وحوائل»^(٤٤).

وشأن الأدب بهذا المعنى شأن أي نشاط بشري، فالأدب العربي «واحد من الأنشطة البشرية في المجتمع العربي، خضع لما تخضع له سائر الأنشطة من نواميس، وجرى عليه ما يجري عليها من سنن، احتك بالآداب الأخرى قديماً وحديثاً في السلم وفي الحرب، غازياً أحياناً ومغزواً في أحيان، وأخذ منها وأعطى لها، وجرى الصراع في داخله بين الأصيل والدخيل، ولا يزال يجري في أدبنا المعاصر إلى مستقر

له سوف يبلغه في حين»^(٤٥).

وهذه النظرة الفكرية جعلت محمد حسين يقف موقفاً ملتزماً، يدافع فيه عن الأدب العربي والشعر منه خاصة، ويفند^(٤٦) دعاوى المغرضين، الذين عابوا فيه قافيته، ووحدة البيت فيه، وشعر المناسبات، والخلاصة أن القضية كانت تمثل عند محمد حسين دفاعاً عن التاريخ والأصل والشخصية والقومية وتراث العرب والمسلمين.

كما امتد هذا الموقف الملتزم إلى رفض^(٤٧) ما يسمى بالأدب الشعبي لما ينطوي عليه من فساد يجر إلى إفساد الذوق العام^(٤٨).

والأدب الشعبي - لصفات في طبيعته الفنية وصفات في ذوق محبيه وما يهدف في النهاية إليه - لا قيمة له ولا حاجة لنا به، فحقيقته الأصلية «أنه أدب سطحي بسيط، يغلب عليه الارتجال والعفوية، ويلائم السذج من عامة الناس، ولكنه لا يشبع حاجات المثقفين، وطلاب المعرفة من أصحاب الفكر الرفيع والذوق الصافي الصقيل»^(٤٩)، وهو فن العوام، غير جاد أو هادف ولا يستحق - في نظره - نقداً أو نظراً «فالنقاد غير مكلفين بعفو خواطر البدو والعوام، لأن عفو خواطر العوام لا يصلح إلا للهو أمثالهم من العوام»^(٥٠).

وبالجملة، فنظرة محمد حسين إلى الفن بعامة متمثلاً في الأدب، نظرة تكشف عن مذهب الرجل الذي يتطلع إلى الكمال الفني، متمثلاً في الروائع من النصوص، ليس في الشكل وحسب، وإنما فيما تهدف إليه من قيم سامية، تهذب الذوق، وتسمو بالنفس، فالفن في صورته الكاملة الناضجة يهدف إلى ترقية الذوق الساذج المتخلف وثقافته، لا الهبوط بالذوق العام إلى مستوى الأذواق الفجة، التي لم يهذبها الثقيف، باسم الشعبية والواقعية.

وكذلك كان لمحمد حسين موقفه الواضح تجاه المذاهب الأدبية الجديدة، التي نشأت في أوروبا، وصدرت إلى البلدان العربية والإسلامية، مع ما وفد إليها من تيارات فلسفية، واتجاهات فكرية متباينة، فهو يرفض الرومانسية مثلاً لما تقوم عليه من ثورة لا تبقي ولا تذر، فالأدب الرومانسي «أدب نادر بكل معاني هذه الكلمة، نادر على القواعد اللغوية، وعلى القواعد الفنية، وعلى القيم الاجتماعية، وعلى العقائد

الدينية، وعلى النظم السياسية»^(٥١)، فالخطورة التي ينطوي عليها أدب هذا الاتجاه عظيمة الشأن، خاصة إذا ضمت إلى المذاهب والاتجاهات التي نشأت في ذلك المناخ الرومانسي النادر، ذلك «لأنها جميعها تتسم بذلك الطابع الثوري، الذي فتحت الرومانسية بابه، وبالطابع الفردي الذي يهدم الروح الجماعية ويقوض أسس الاستقرار»^(٥٢)، ويلفتنا من النص السابق لفظاً «الثورية، والفردية» اللذان جعلاً محمد حسين يرفض تلك الآداب والمذاهب، التي تتسم بهاتين السمتين، ونستدل منهما على ملامح اتجاه الرجل النقدي بعامة، فرفضه للثورية مثلاً نفهم منه أن اتجاهه يدخل ضمن الاتجاه «المحافظ» في الأدب، الذي يقوم على سد الذرائع، إذا كان مع الوافد الجديد ما يهدم النظام «الكلاسيكي» الذي يمثل التراث العربي على مدى أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، أما رفضه «الفردية» فيكشف لنا عن ذلك البعد القومي والجماعي الذي كان ينظر به محمد حسين إلى الأدب، ويعدّه مظهرًا من مظاهر الوحدة بين أفراد الأمة العربية الإسلامية.

ولا يفهم من حديثنا السابق أن محمد حسين باتجاهه المحافظ يقف من التجديد في الأدب العربي موقف العداء، أو أنه يتقوقع حول الأدب العربي، فيحول بينه وبين أن يتنفس هواء جديداً يساعده على الإنشاء والتأثير، ويدفعه إلى الخلود، بل نراه متفهماً ضرورة التجديد في الأدب العربي، لأنه سنة طبيعية في الحياة، لكنه يضع ضوابط لهذا التجديد، فهو مقبول إذا لم يمس الذوق العربي الأصيل، ولا ينفر القارئ من أسلوب الصياغة.

ويمكننا تلخيص ما وافق عليه محمد حسين من «تأثيرات» غربية أو تجديد في أدبنا العربي مثلاً في أهم فنونه «الشعر»^(٥٣) فيما يأتي:

١ - تقسيم القصيدة إلى فقرات، يصور التخطيط للقصيدة وإدارة معانيها في الفكر قبل الأخذ في كتابتها، والتروية في النظر فيما هو مقبل عليه من معالجتها.

٢ - دخول ألوان جديدة في موضوعات الشعر، كشعر الخرافات على لسان الحيوان، كمثّل الذي استحدثه شوقي، وتأثر فيه بالشاعر الفرنسي «لافونتين».

٣ - التجديد في شكل الأبيات، بما يشبه الموشحات الأندلسية

شخصية متميزة :

لم تكن نظرة محمد حسين إلى الشعر تختلف عما ذكر من نظرة النقاد السابقين^(٥٥)، فالشعر في نظره - كالأدب - يمثل الشخصية العربية، أو أنه صورة من صور هذه الشخصية العربية في جانبها الفني. يقول محمد حسين عن الشعر العربي إننا ورثناه «فتاً عربياً ناضجاً واضح القسّمات، لنا فيه تقاليد عريقة عميقة الجذور، ألّفها الأذان وتشربتها القلوب، ومرنت على سماعها والطرب لها، ثم بعدنا به في شعرنا المعاصر عن أصوله، بعداً يهدد التراث بالدروس، ويهدد أذواقنا بالمسخ والانحراف، ويهدد «شخصيتنا» بالتميع والانطماس»^(٥٦). فاهمية الشعر عنده إذاً ترجع إلى أنه يصور «ذوقاً واحداً أو متشابهاً للجماعة العربية»، وهو مظهر من مظاهر الامتياز والتشابه معاً، فأما الامتياز فإنه بحكم صياغته وأسلوب صناعته وشكله العام، يختلف عن نظيره في الآداب الأجنبية، أما التشابه فلأن كل الشعراء العرب تشابهوا، أو هم اتفقوا بالفعل على هذه الخصائص، التي توجد النظرة الفنية عند التأليف له، وبذلك يكون الشعر العربي، الذي يقوم على هذا النحو من نهج القصيدة وعمود الشعر عاكساً لهذه الشخصية العربية، التي «تقوم على تشابه أذواق العرب وملكاتهم، وهذا التشابه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتراثنا الثقافي العريق وبعمالقة الشعر والأدب بخاصة، الذين سجلوا مثلنا العليا إيجاباً وسلباً في شعر الحماسة والأدب والرياء والهجاء، وفي الخطب وفي الرسائل بمختلف صنوفها، بين ديوانية وإخوانية ووصفية ووعظية وأخلاقية»^(٥٧). وإن كانت هذه نظرة خلقية ذات غاية نفعية من جانب محمد حسين للشعر، فإن هناك نظرة أخرى فنية يمكن أن نلمسها له في الشعر أيضاً، ولكن أصلها عنده، لا يبعد عن النظرة الخلقية السابقة، فما تلك النظرة؟ في ظني^(٥٨) أن الشعر عند محمد حسين فن لغوي في ذاته، وهذا ما يرفعه فوق باقي الفنون الأدبية، ولكن لهذا الفن أسلوباً خاصاً في صناعته، تعارف عليه شعراؤنا القدماء، فهو كصناعة الحياكة والنسيج، التي يدع فيها الصانع المهرة، حتى إذا انتهوا من صناعة الأساليب والأنماط الشعرية، التي يتجهون فيها إلى تصوير مثلهم العليا، ألبسوها من يريدون - الممدوح أو المهجو - وإذا أرادوا خلعوها عنه، فهم لا يمدحون الشخص لنفسه مثلاً، وإنما قالب المدح عندهم جاهز ومعد من

في قوافيها، دون إخلال بالمعنى.

٤ - توزيع جديد للوحدات العروضية المألوفة للأذن العربية.

كما أنه يقف الموقف نفسه من الثقافة العربية بأدبها ومعارفها، إذا «اتصلت» بغيرها من الثقافات الأجنبية عنها، حيث لا نراه يقف موقف الجمود أو الانغلاق، يوصد الأبواب على ثقافتنا، ويقطع كل أسباب الاتصال بينها وبين الثقافة الغربية، بل يسمح بهذا «الاتصال» الذي هو مهم بين الثقافات، ولكن هذه الأهمية لا ترجع إلى الاقتباس من هذه الثقافات الغربية فحسب، بل «المهم في ذلك كله هو أن يكون الاقتباس والتطور على كل حال بالقدر الذي لا ينقلنا عن جيلتنا، ولا يغير حقيقتنا، ولا يقطع صلتنا بالماضي، وبالقدر الذي لا يخشى معه أن يتطور إلى قطع صلة»^(٥٩).

وأول ما يلاحظه المتتبع لفنون الأدب في آثار محمد حسين هو إعلاؤه فن الشعر بخاصة دون الفنون الأدبية الأخرى.

وهذا الموقف يقابله موقف مغاير تجاه بعض فنون الأدب النثرية، أو بمعنى أدق «فنون الموضوعية»، متمثلة في القصة والمسرح. وسناقش هذا الموقف محاولين رده إلى أصله عنده وكشف مسوغاته لديه.

الشعر ديوان العرب، وهو مرآة صادقة تنعكس عليها أخبارهم وعواطفهم، ويحدثنا الشعر بمدى اختلاف بيئاتهم، وأثر هذا الاختلاف في أمزجتهم، وتوجهات العلماء والأدباء فكرياً وفنياً. هذا ما يعرفه علماء الشعر ونقاده قديماً وحديثاً، حتى بعد أن ظهرت في العصر الحديث نظريات جمالية، وشكلانية نصية، حاولت جميعها أن توجه الأنظار إلى ما في الشعر من طاقات إبداعية، لا نعرف أقصدها المبدع أم لم تخطر له على بال؟

والشعر فن لغوي، يعبر عن الأحاسيس والعواطف التي ينفي بها الفرد، ولكنه لا يعكس في الأصل عواطفه الخاصة فحسب، بل يصور لنا صلته بالجماعة، بوصفه كائناً اجتماعياً مصوراً لحياة جماعته وعواطفهم المشتركة، ولأن للشعر قدرة على التأثير، بما يمتاز به من أدوات فنية، فقد أخذت مكانته تثبت في النفوس، وتعلو على مر الأزمان.

٢ - أنه شعر استجداء :

وقد قصد المتهمون للأدب العربي بهذا الاتهام فن المدح، الذي كان يتكسب من ورائه جماعة من شعراء العربية، ويربرر محمد حسين موقف الشعراء هذا قائلاً بأن الشعر في الآداب العربية واليونانية والرومانية، عاش جميعه في كنف البلاط، ضمناً لاستمراره في الحياة «ولم يستقل الشاعر بنفسه إلا بعد ظهور المطبعة والصحافة، التي مكنته من الاعتماد على القراء في كسب رزقة وتحصيل معاشه»، ولم يكتف بنفي التهمة التي وجهت لشعراء المدح أنفسهم، بل رأيناه يعود فيدافع عن فن المدح نفسه، حيث إنه يصور قيصراً إنسانية رفيعة يعجب بها العرب، (و غاية ما في الأمر أنه ينسب هذه القيم الرفيعة للممدوح، وقد لا يكون منها في قليل أو كثير، فهذا الشعر في لبه وفي صميمه شعر حماسة، أروع ما تكون الحماسة، وكله تصوير للمثل العربية العليا، التي نحن الآن أحوج ما نكون إلى بثها في شبابنا) (٦٣).

٣ - وحدة البيت في الشعر العربي :

وقد رد على من هاجم في الشعر العربي وحدة بيته، والتي رأوا أنها سبب تفكك القصيدة العربية.

وقد أرجع سبب وحدة البيت في الشعر العربي إلى أنه «شيء قد اقتضاه نظام القصيدة العربية من ناحية، ودعا إليه تصور العرب لوظيفة الشعر والشاعر من ناحية أخرى، فالقصيدة العربية مقلقة، وتذوق القافية والإحساس برنينها يستلزم وقفة قصيرة عقب كل بيت، لذلك استحسّن العرب أن يكون ذلك موافقاً للفراغ من معنى جزئي يحسن عنده السكوت» (٦٤).

وهو يخلص في النهاية إلى أن ما رماه أعداء العربية في أدبها من عيب في وحدة البيت، ليس بعيب، بل هو للمتذوق يصنع شيئاً من الجمال، فإفراد كل بيت واستقلاله، يجعل الأبيات كحبات العقد المفصلة (لكل حبة منها جمالها مفردة، ولكن اجتماع بعضها إلى بعض، ينشئ لوناً من الجمال هو جمال التوافق والانسجام والنظام) (٦٥)، على أنا نقرر أن

ذي قبل، فالفن إذاً صناعتهم، ويضرب مثلاً بشعر الهجاء الذي ينصرف فيه الشاعر إلى تصوير مثله الأعلى (٥٩) ولكن بطريق سلبية.

وتلك نظرة خلقية يمكن ربطها بأراء من قالوا إن إعجاز العرب محصور في اللغة وكمالها ونضجها عندهم، وقد دفعه موقفه هذا من الشعر العربي إلى أن يوقف نفسه له، دافعاً عنه شتى المغامز التي غمزها بها بعض المغرضين على الأدب العربي - كما سألين - ولكن أقف هنا وقفة متأنية، أحاول بها توسيع دائرة ظني وترجيحي للأسباب المعقولة التي دفعت محمد حسين للحديث عن فكرة تشابه الأغماط الشعرية عند الجاهليين، فإذا كان طه حسين قد اتخذ من هذا التشابه نفسه دليلاً على نحل الشعر من قبل الرواة (٦٠) المتأخرين، فلإني أرجح أن بحث محمد حسين في هذا الموضوع يعد رداً على أستاذه، وذلك بتأكيد فكرة التشابه هذه، وأنها كانت متحركة في نهج القصيدة العربية عند الجاهليين، فلا يستحق الأمر بعد ذلك من أن يسخر طه حسين من تشابه أغماطهم الشعرية، فهكذا كان دأبهم في التأليف الشعري.

وبعد فلنعد إلى تبيان أهم القضايا التي دافع فيها محمد حسين عن الأدب العربي، ويمكننا تلخيص دفاعه عن الأدب العربي - متمثلاً في الشعر - فيما يأتي :

١ - أنه شعر مناسبات :

وقد رد محمد حسين هذه الشبهة بما يفيد أنه أديب من دعاة الوحدة، ومن يحرصون على وجوب التجمع، الذي هو سبب القوة، لأن الفرقة ضعف، وذلك مفهوم إسلامي صرف، أمر به الله سبحانه وتعالى وحث عليه الرسول ﷺ (٦١)، وهو في رده هذا المغمز، ينعى على الأوروبيين في آدابهم تلك الفردية والانطوائية، أما في الأدب العربي فالأمر يختلف حيث تظهر فيه روح الجماعة والاتحاد، فالواقع أن مشاركة الشاعر في المناسبات هي مظهر من مظاهر ارتباطه بالجماعة وتجاوبه معها، وأنه لا يرى الخير إلا ما شمل الصحب والوطن، كما قال الشاعر العربي القديم :

فلا هطلت علي ولا بأرضي

سحائب ليس تنتظم البلاداً (٦٢)

الهوامش :

- (١) (أ) مجموعة البحوث التي قدمت أثناء انعقاد ندوة محمد حسين العلمية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية في الفترة ما بين الرابع والعشرين والخامس والعشرين من ديسمبر - كانون أول لعام ١٩٨٣ م. وتشمل على ثلاثة عشر بحثاً، تناول فيها أصحابها جهود محمد حسين الفكرية، عدا بحثين أحدهما للدكتور محمد زكي العشماوي، والآخر للدكتور محمد زكريا غناني، حيث تناول الجانب الأدبي والنقدي في جهود الرجل، وسيأتي ذكر بعض أسماء هذه البحوث لاحقاً. والعجيب أنها نشرت جميعاً تحت عنوان «موقف الدكتور محمد محمد حسين من الحركات الهدامة». ت. د. إبراهيم محمد إسماعيل عوضين - مؤسسة الرسالة - بيروت عام ١٩٨٥ م.
- (ب) عليان بن دخيل الله الحازمي «محمد حسين وآثاره الفكرية والأدبية» رسالة ماجستير مخطوطة - كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٧ هـ.
- (٢) نشر بعد وفاته عام ١٩٨٨ م بمؤسسة الرسالة - بيروت، ومن أهم أبحاثه بحث بعنوان «أثر الأدب الغربي في أدبنا العربي المعاصر»، وهو آخر ما كتبه محمد حسين ومات دون أن ينشره.
- (٣) (أ) الأعشى، صناجة العرب «رسالة ماجستير مخطوطة»، المقدمة ١٩٤٠ م.
- (ب) الهجاء والهجاءون في الجاهلية - الطبعة الأولى ١٩٤٧ م، القاهرة، مكتبة الآداب، ص ٧ وما بعدها حيث تحدث بشئ من الحرية عن بعض الصحابة كالسيدة عائشة وعلي وعثمان رضي الله عنهم جميعاً.
- (ج) ديوان الأعشى، الطبعة الأولى ١٩٥٠ م، طبع في القاهرة، المقدمة.
- (٤) أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهليين، طبعة ١٩٧٢ - بيروت، المقدمة، الحاشية.
- (٥) الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام، طبعة ١٩٦٩، بيروت.
- (٦) وهو تقرير في ست صفحات، لخص فيه محمد حسين العقبات التي تحول دون تدقيق الأدب العربي والإقبال على التراث العربي في نقاط أربع.
- (٧) تراجع ظروف تأليفه كتاب «الاتجاهات الوطنية» حين كتبها بقلمه، ضمن أوراقه الخاصة بمكتبه.
- (٨) ضمن أوراقه الخاصة بمكتبه الخاص في منزله برمل الإسكندرية.
- (٩) راجع الإحالة رقم (١).

محمد حسين لا ينفي وجود نوع من الوحدة يشد أبيات القصيدة بعضها إلى بعض، وسبب هذه الوحدة هي «العاطفة» التي تتوافر لدى بعض من فحول الشعر العربي، ففي قصائدهم وحدة عاطفية (تتلاءم فيها المقدمة الغزلية أو الطللية مع موضوعها تلاؤماً يُشعر القارئ منذ البيت الأول فيها بحال الشاعر، وبما هو مقدم على تناوله من معان) (٦٦).

٤ - القافية :

ولم تسلم قافية الشعر العربي من اتهامات المتقصرين من قدر الأدب العربي، ممن فتنوا بالآداب الغربية، ويريدون أن يحملوا أدبنا عليه، فعاثوا على الشعر العربي نظام القافية فيه ووحدتها، التي يرون أنها تقيد الخيال والصور والمعاني عند الشعراء، وقد وقف محمد حسين من تلك القضية موقفه من سابقتها، قائلاً: (إن نظام القافية في البيت هو على التحقيق كمال «في انسجام» النغم ورصف الألفاظ وتنسيق الصور. وقد جمع شعراء العرب في مختلف عصوره بينها وبين خصب الخيال ودقة المعنى وروعة الأسلوب» (٦٧)، وهو بذلك لا يرد القصور الذي يعيب القصيدة إلى نظام القصيدة نفسها، بل العيب في رأيه يرجع إلى الفنان ذاته، الذي لا يحسن الملاءمة بين عناصر القصيدة ونظامها في الشكل والمضمون.

كان هذا موقف محمد حسين من الشعر العربي وقضاياها الموضوعية والفنية، التي حاول بها بعض أعداء العربية أن يشوهوا معالمة ويمسخوا هويته العربية.

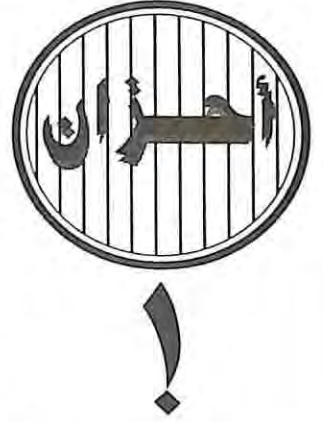
فالشعر عنده يعبر عن الوحدة، والتواصل بين الموروث الحضاري والقومي، وبين الحاضر بكل متغيراته، ولذلك اتخذ مكانته في نفسه وفي آثاره، بينما كان للشعر مكانته الثانية بعد الشعر.

كان هذا عرضاً موجزاً لبعض أهم جوانب الرجل الفكرية والأدبية التي رأينا جدارتها بالبحث والدرس، ونعود لنؤكد أن محمد حسين في النهاية واحد ممن أخلصوا الجهد والعطاء طيلة حياته العلمية، وهو إحدى حبات عقد ينتظم في سلكه كثير ممن هم على شاكلته الفكرية من فكر مستنير والتزام إسلامي، وهو عقد يزين جيد أمتنا الإسلامية المترامية الأطراف شرقاً وغرباً.

- (١٠) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - ج ١، «مقدمة الطبعة الأولى»، ص. ز. س ١١، مكتبة الآداب - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٦٢.
- (١١) المصدر السابق، ص ٦٥.
- (١٢) مقالات في الأدب واللغة «فقه اللغة العربية بين الأصالة والتغريب»، ص ٦٤ س ٦، كذلك يراجع بحثه عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودفاعه عن دعواته بالكتاب نفسه.
- (١٣) الاتجاهات الوطنية - ج ٢ - الفصل الرابع، «دعوات هدامة»، ص ٣٧٥، وراجع أيضاً: «اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر»، ج ١ - سبيل المسلمين بالإسكندرية ١٩٦١ / ١٩٦٢ م.
- (١٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٧.
- (١٥) مقالات في الأدب واللغة، ص ٦٤-٦٥ وما بعدها، «فقه اللغة بين الأصالة والتغريب»، وأيضاً يراجع بحثاً «الدكتور محمد محمد حسين، وحركة الترجمة في العصر الحديث»، د. محمد مصطفى هدار، «خصوصيات الدكتور محمد محمد حسين في سبيل الدين واللغة»، د. طاهر سليمان حموده.
- (١٦) الإسلام والحضارة الغربية، ص ١٠٤-١٠٥، مقالات في الأدب واللغة، ص ٦٥.
- (١٧) مقالات في الأدب واللغة، ص ٥٤ س ١٩ «تطوير قواعد اللغة العربية».
- (١٨) في النقد الإسلامي المعاصر، د. عماد الدين خليل بتصرف، ص ١٣٦، ١٤٣، وراجع أيضاً كتاب «منهج الفن الإسلامي»، أ. محمد قطب، ص ٤٦ وما بعدها.
- (١٩) محمد محمد حسين حياته وأثاره الفكرية والأدبية «رسالة ماجستير»، ص ٦٣٤.
- (٢٠) الإسلام والحضارة الغربية، ص ١٠٥ س ٢.
- (٢١) مقالات في الأدب واللغة، ص ٦٥ س ٥ «فقه اللغة العربية بين الأصالة والتغريب».
- (٢٢) المصدر السابق، ص ٥٥ س ٣.
- (٢٣) في علم النفس، تأليف د. حامد عبد القادر، محمد عطية الأبراشي، ج ٢ - ص ١٣٨.
- (٢٤) تذوق الأدب طرقه ووسائله، تأليف د. محمود ذهني، ص ٤٦ وما بعدها.
- (٢٥) «منهج البحث في تاريخ الآداب - بقلم لانسون - ترجمة د.
- محمد مندور، مطبوع مع «النقد المنهجي عند العرب»، ص ٤٠٠، د. ت.
- (٢٦) الاتجاهات الوطنية - ج ١ - ص ٧.
- (٢٧) المصدر السابق - ج ١ - ص ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، وشبهه بذلك حسه في إدراك تحول سياسة «عباس» من الوطنية والباب العالي، والسلطان عبد الحميد إلى سياسة أخرى اتسمت بجشعه في جمع الأموال، الاتجاهات - ج ١ - ص ١٧١ - ١٧٣.
- (٢٨) الإسلام والحضارة الغربية، الفصل الثامن، ص ١٩٥، ومن ذلك الاستقصاء الجزئي في استقراء التصوص، تتبعه صحف العصر على مدى شهور - الاتجاهات الوطنية - ج ٢ - ص ٣٥ بالخاصية.
- (٢٩) المنطق ومناهج "حث، د. محمد الشنطي، ص ٨٩.
- (٣٠) الإسلام والحضارة الغربية، ص ١٦٨، ١٦٩.
- (٣١) الهجاء والهجاءون في الجاهلية، ص ١٦، ١٧.
- (٣٢) الاتجاهات الوطنية، ج ١، ص ٥٠.
- (٣٣) المصدر السابق - ج ١ - ص ٢٣٥، ٢٣٦، ويراجع أيضاً في ص ٢٤٤، وما بعدها صدى حركة الإصلاح في مصر «ثلاث دعوات».
- (٣٤) منهج الفن الإسلامي، تأليف محمد قطب، ص ١٣، دار الشروق، ط ٥، ١٩٨١ م / ١٤٠١ هـ.
- (٣٥) في النقد الإسلامي المعاصر، تأليف د. عماد الدين خليل، ص ١١٧، الرسالة - بيروت، ط ١، ١٩٧٢ م.
- (٣٦) الدكتور محمد محمد حسين في «الاتجاهات الوطنية» بحث بقلم د. أحمد ماهر البقري.
- (٣٧) فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، د. أحمد سمايلوفتش - أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات الإسلامية في سراييفو - يوغسلافيا.
- (٣٨) الاتجاهات الوطنية - ج ٢ - ص ١٨٢، وما بعدها، ويراجع بحث د. محمد حسين عواد «الدكتور محمد محمد حسين والدفاع عن قضايا الإسلام»، د. عثمان سليمان موافي «موقف د. محمد محمد حسين من قضية الصراع بين القديم والجديد».
- (٣٩) المصدر السابق - ج ٢ - ص ٢٤٥.
- (٤٠) المصدر السابق - ج ٢ - ص ٢٤٦، وما يد على ذكائه أيضاً في هذا الصدد ما ذكره مستدلاً بحجج نقلية وأخرى عقلية لتفسير آية العدل مع النساء في القرآن الكريم، ص ٢٧٨ بالخاصية.
- (٤١) الاتجاهات الوطنية - ج ٢ - الحاشية (٢) ص ٨٦، ويمكننا تبرير

- (٥٤) صنع الشيخ «علي عبدالرازق» بيسر إذا علمنا أنه أزهرى، فمن لوازم أسلوب الأزهرين في الكتابة الإكثار من الصلاة والسلام بإزاء كل موضوع يذكر فيه اسم الرسول.
- (٤٢) المصدر السابق - ج ٢ - ص ١٣٥.
- (٤٣) د. محمد حسين وحركة الترجمة في العصر الحديث، بحث بقلم د. محمد مصطفى هدارة.
- (٤٤) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٢٤٣-٢٤٤، ص ٢٤، ويتلقى محمد حسين في هذه النظرة للفن والأدب بخاصة مع أرست فيشر، الذي يرى «أن الفن هو الأداة اللازمة لإتمام هذا الاندماج بين الفرد والمجموع، الفن الاشتراكي، ترجمة أسعد حليم، ص ١٨، كتاب الهلال، عدد ١٨٣، يونيو ١٩٦٦.
- (٤٥) مقالات في الأدب واللغة «أثر الأدب الغربي في أدبنا المعاصر»، ص ١٩ س ١٠.
- (٤٦) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٢٣٢-٢٣٥، مقالات في الأدب واللغة، ص ٤٠.
- (٤٧) يمكننا القول أن نظرة محمد حسين الفكرية للأدب تجعله ضد ما يسمى «بإقليمية الأدب» أو الأدب الإقليمي.
- (٤٨) الخوف على الذوق العربي أيضاً ساعد محمد حسين على أن يعد الأدب من مظاهر الوحدة، فالأدب العربي إلى جانب القدر المشترك من الثقافة العربية هما اللذان يكونان (القدر المشترك من الذوق، ومن التفكير الذي لا تفاهم ولا تواصل لغيره)، الاتجاهات الوطنية - ج ٢ - ص ٣٦٣-٣٦٤، وقد سبق القول أنه مما يؤكد نظريته للأدب كمظهر من مظاهر الوحدة تقريره الذي رفعه إلى اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ تحت عنوان «تدريس الأدب العربي وإمكان استغلاله في تقوية الرابطة بين أم الجامعة العربية».
- (٤٩) أزمة العصر، ص ٢٥٧ س ١٠.
- (٥٠) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٢٤٠ س ١٥، ١٠، ويمكننا في معرض هذا الفصل أن نصف مطمئتين - محمد حسين ضمن أنصار مدرسة الفن «الهادف» أو الملتزم أو الموجه، وهو بذلك بعيد عما يعرف بنظرية الفن للفن، ويراجع أيضاً «حصوننا مهددة من داخلها»، ص ١٥١.
- (٥١) مقالات في الأدب واللغة «أثر الأدب الغربي في أدبنا العربي المعاصر».
- (٥٢) المصدر السابق، ص ٢٦ س ١٨، «البحث السابق».
- (٥٣) المصدر السابق، ص ٣٣-٣٦.
- (٥٤) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٢٣٠ - ٢٣١ س ٢٣.
- (٥٥) اعتقد أن المقام لا يسمح بالإحالة إلى المصادر العربية والأجنبية القديمة، والمراجع الحديثة التي تؤيد تلك النظرة، فهي في معظمها تفيض بجمل من التعريفات للشعر لا تخرج عن ذلك المعنى.
- (٥٦) مقالات في الأدب واللغة «أثر الأدب الغربي في أدبنا المعاصر»، ص ٢٣.
- (٥٧) حصوننا مهددة، ص ١٦٨، ١٦٩ س ٢٧، ويراجع أيضاً «الإسلام والحضارة الغربية»، ص ٢٢٤، ٢٢٥.
- (٥٨) بنيت رأيي هذا على بحث محمد حسين «أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهليين»، وما قاله في كتاب «الإسلام والحضارة الغربية»، ص ٢٣٤.
- (٥٩) الهجاء والهجاءون في الجاهلية، ص ١٩، ٢٠، ويراجع أيضاً «الإسلام والحضارة الغربية»، ص ٢٣٤.
- (٦٠) الأدب الجاهلي، د. طه حسين، ص ١٦٨ وما بعدها.
- (٦١) الشواهد من القرآن والسنة على ذلك المعنى كثيرة، وفي ظني أن محمد حسين قد انطلق في مفهومه إلى القومية العربية الإسلامية وحتمية الوحدة بين أفرادها من منطلق هذه الشواهد، مثل قوله تعالى في آل عمران - الآية (١٠٣): «وراعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»، وقول الرسول ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وترحمهم كمثل الجسد الواحد... إلى آخر الحديث).
- (٦٢) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٢٣٣ س ١٦، مقالات في الأدب واللغة، ص ٤٠، والبيت للمعري.
- (٦٣) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٢٣٤ س ٦.
- (٦٤) المصدر السابق، ص ٢٣٥ س ١٣، مقالات في الأدب واللغة، ص ٤٠.
- (٦٥) المصدر السابق، ص ٢٣٦ س ٣.
- (٦٦) مقالات في الأدب واللغة، «أثر الأدب الغربي في أدبنا العربي المعاصر»، ص ٤٠ س ١٠، ويراجع اهتمامه بوحدة القصيدة العضوية في معرض نقده حماسة أبي تمام، «الهجاء والهجاءون في الجاهلية»، ص ٧.
- (٦٧) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٢٣٣ س ٦ - وتراجع الأهمية الجمالية والدلالية للقفية في القصيدة في كتاب نظرية الأدب: رينيه ويليك، ص ٢٠٨، ٢٠٩، وهو ما يؤكد رأي محمد حسين في هذا الصدد.

بقلم / عنتر مخيمر



كان يوشك أن يغلبه النعاس ، حين تعالت من خارج مسكنه زغرودة صاخبة ،
تضج بفرحة غامرة .. طار النوم من عينيه ..
تلمل في مقعده ..
النتيجة .. بالتأكيد هي .

ماذا يقول لها؟!
مهمته ثانية :
- نتيجة الثانوية يا حاج .
ثم راحت في نشيج فاجع مكتوم .
أغمض عينيه .
تنهد ملتاعاً متحسراً .
آه .. هو أيضاً يريد أن يبكي .. أن يصرخ من أعماقه
عالياً .
ارتعشت شفتاه في استعطاف :
- ستذهب لترى النتيجة؟ .. أليس كذلك؟
شمّلها بنظرة هالعة .
النتيجة؟! .. هل يقدر؟ .. مستحيل .. وأيضاً ما
الفائدة؟ .. الأحلام الزاهية تمزقت .. صرح الآمال
الشامخ تهدم .. وأصبحت أيامه - ليلاً ونهاراً - ظلمة
حالكة .
ترقرقت الدموع في مقلتيه .
أبصرت زوجته دموعه الحبيسة ، فاجتاحتها نوبة بكاء
حارقة .
النتيجة؟ .. يا للحسرة .. حتماً ستكون باهرة .
الكل كانوا يتحدثون بإعجاب عن نبوغها .. بل كانت أمل
مدرستها في نتيجة تفتخر بها .. من الصغر ونتائج
امتحاناتها رائعة .. الأولى دائماً ..
تلاحقت الذكريات .
صورتها مازالت ماثلة في خياله ، وهي تحدّثه عن آمالها .
أعدك يا أبي .. لن تفلت كلية الطب من يدي ! وبعد أعوام
سرعان ما ستنتهي .. سترتفع على واجهة بيتنا لافتة

برق في خياله وجهها ، فاهتاجت أحزانه ، وأتقد خاطه .
اليوم كان يمكن أن يكون يوم سطوع نجمها .. أما أمها
فكان يمكن أن تطلق هي الأخرى زغاريداً ، وكان
سيصرخ فيها وهو يغالب عواطفه .. يا امرأة اعقلي!
فتهتف والفرحة تهز أعطافها .. دعنا نفرح يا حاج .. هل
لنا غيرها؟ .. الدنيا - اليوم - لا تسع فرحتي .
مزقت سمعه زغرودة ثانية .
ارتجحت حتى الأعماق .. تندت عيناه بدموع حبيسة .
ستتوالى الزغاريد .. تدوي في سمعه .. تنكأ جرحه
الغائر .
أشعل لفافة بيد ترتعش ، وفي غم وكآبة جعل ينثف
دخانها .
بعد لحظات مدّ بصره إلى غرفة النوم ، من خلال بابها
المفتوح ، أبصر زوجته على الفراش ، تدفن وجهها في
حجرها .
لا بد أنها تبكي ، ستموت حزناً .
علا نحيب قلبه .
أبصر زوجته تنهض من فراشها ، ثم تجرّ قدميها إليه .
احتضنها بعينيه ، والأسى يغمره .
راعه الشحوب الذي كسا وجهها .
الأحزان تعصرها ، في أيام أصبحت وكأنها حطام آدمي .
تهالكت على مقعد بجانبه .
وبعد أن هدأت أنفاسها همست في صوت واهن :
- سمعت يا حاج ؟
ارتجفت شفتاه .. احتقن وجهه .. بلغ عذابه منتهاه .
سحق لفافته في المنفضة .